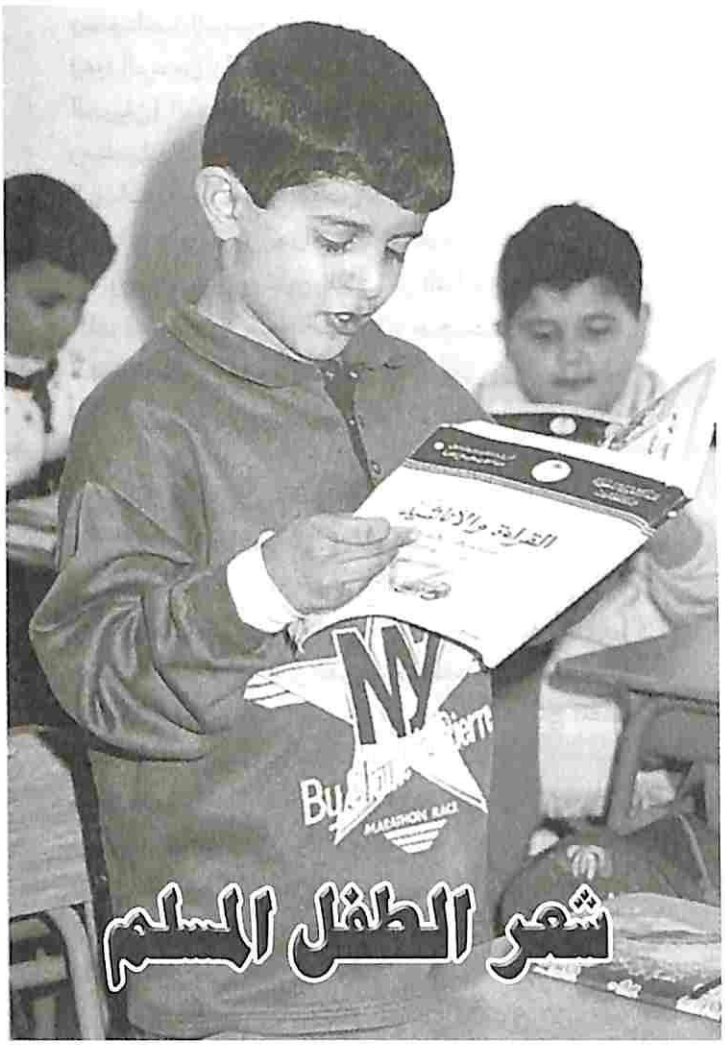

منذ القرن الرابع الهجري غادر الناس ساحة الشعر .. لم يعودوا يترنمون به، ويتناقلونه، أو يقرؤونه على أسماع أبنائهم، لذلك شب هؤلاء بعيدين عنه، إلاّ فيما ندر .. وكانت الأمهات ينشدنه لهم، وما زالوا في المهد فيتعودون عليه، ويألفونه، ويحبونه، وتوقف ذلك مع أن الشعر «ديوان العرب..» وقد لاحظنا أن الشعراء العرب لم يكتبوا قصائد للأطفال، وظل ذلك لقرون طويلة، إلى أن أقدم أمير الشعراء أحمد شوقي بريادة هذا المجال، وقد جمعنا ديوانه لهم، وأيضا ديوان الهراوي وكامل كيلاني ومعروف الرصافي وإبراهيم العرب .. وظهر من بعدهم جيل رائع توجهوا بشعرهم إلى الأطفال وأثروا هذا المجال، وحصل بعضهم على جوائز عربية، ووطنية من بينهم : سليمان العيسى وفاروق سلوم .. وإبراهيم شعراوي وأحمد زرزور ونشأت المصري، وثلاثتهم حازوا جائزة الدولة التشجيعية في مصر عن أشعارهم للأطفال.

لقاء الشعر والطفولة

بقلم: عبدالتواب يوسف
مصر

يلتقي الطفل بالشعر – لأول مرة – مع أغنياته وأناشيده، وهو يردد كلماتها في فرح وابتهاج، سعيدا بما فيها من إيقاع، وقافية، لكن أحداً لا يلفت نظر الصغير إلى أن هذا الذي يردده لون من الشعر، كما أن ذلك غالبا ما يكون باللهجة العامية، ومما يقلل من قيمته – أيضا أن ذلك يكون من خلال إعلانات الشاشة الصغيرة التي تستغل الأطفال، وشغفهم بموسيقى الشعر استغلالا يهدد قيمته..

ويقترب الطفل أكثر إلى الشعر مع بداية مراحل التعليم، وكان المتوقع من وزاراته أن تحسن تقديمه إليهم من خلال النصوص التي يحفظونها، أو تلك التي تتضمنها كتب «المطالعة»، إلاّ أن الاختيارات كثيرا ما تنفر التلاميذ منه، وتبعدهم عنه، إلى حد أن تصبح هناك شبه قطيعة معه، ولا يدخل إلى صميم حياتهم، مع احتياجهم الشديد إليه، وضرورته القصوى في عصر سادته المادة، ويمكن للشعر أن يكون له دوره في تغذية أرواحهم ونفوسهم بمعنويات رفيعة

المستوى، ولغة جميلة، عذبة، منغمة، موقعة، وتبقى هذه وتلك رفيقة لهم بقية العمر ..

وإذا كان هذا هو الحال مع الشعر عامة، فما بالنا به مع شعر الطفل المسلم العربي، وخبراتنا متواضعة مع شعر الطفل المسلم غير العربي، لأن ما نقل إلينا منه قليل، بل نادر، وقلما نقرأ قصيدة مترجمة عن الفارسية أو التركية أو الأوردية أو الإندونيسية أو .... إلخ .

.. ومن الواضح أن الأطفال يغنون الشعر، وينشدونه، وهم يطربون له، لكن ما أن يشبوا عن الطوق يغادرون ساحته، مع أنهم يعرفون أن أجدادهم في العصر الذي سمي بالجاهلي كانوا - فيما يقال - يعلقون قصائدهم الرائعة على أستار الكعبة تقديرا لها وحفاوة بها، ومن هنا سميت بـ«المعلقات».

ونحن في أسف وأسى لهذا الزهد فيه، والبعد عنه ..

* إنه « صور بديعة، ورائعة، وملونة، مرسومة بالكلمات والطفل يحب الرسوم ويستمتع بها .. فلماذا لا يبحث عنها فيه ؟
* وهو «فكر» ولا نستطيع أن نعجب بشعر بلا فكر .
* .. والشعر أوزان، وأنغام، وألحان، فكيف يهجره، ولا يردده ؟
* والشعر «لغة»، وعندما تكون لغته هي العربية، فهي إذن كما قال عنها العقاد:«لغة شاعرة».

في بعض البلدان التي يرغبون في تثقيف وجدان الطفل، وعقله يوقف المعلم الدرس - علوما أو رياضيات أو ... - ويقول : - دقيقة للشعر .

قصائد شوقي الدينية للأطفال

تأثر أمير الشعراء أحمد شوقي بأعمال «لافونتين» الفرنسي تأثرا واضحا، وكان هذا قد نقل الكثير من قصص «إيسوب» اليوناني، وأغلب الأعمال القصصية في قصائد أحمد شوقي تتجه إلى «الحيوان»، وقد أعطى «سفينة نوح»، وما حملته من كل زوجين اثنين، اهتماما كبيرا، فكتب عنها خمس عشرة قصيدة للأطفال، وقد تضمنت قيما إسلامية جليلة الشأن.

وقصيدته عن رعاية الأطفال خير شاهد على تبنيه قضايا الطفل المسلم ..

يا حماة الطفل خير المحسنين
يدكم فيها يد الله المعين
انظروا عند توافي جمعكم
تجدوا في الجمع جبريل الأمين
ظلل الطفل ووافاه على
مهرجان الله عرش المرسلين
يذكر الفضلَ على الدهر لكم
من رعيتم من بنات وبنين

ونورد هنا قصيدته عن الشبان المسلمين، تلك الجمعية التي قامت برعايتهم والأخذ بيدهم :

نشيد الشبان المسلمين

العز للإسلامِ منارة الوجودْ
هداية الأنامِ ومطلع السعودْ
* * *
عصابة الصديقِ وراية الفاروقِ
والحق والوسيلةْ والسمحة الظليلةْ
ومعقل الفضيلةْ وغابة الأسودْ
* * *
الفرس في لوائهْ والهند في ضيائهْ
في الأرض صار كالعلمْ بعزة تمحو الظُّلَمْ
بين الكتاب والقلمْ مظفر الجنودْ
* * *
الشام من أسرتهْ ومصر نور غرتهْ
من هالة لهالةْ يمزق الجهالةْ
ويهزم الضلالةْ ويحطم القيودْ
* * *
علاقة القلوبِ وعروة الشعوبِ
مشى هدى ورحمةْ بينهم وذمةْ
فليس بين أمةْ وأختها حدودْ

الهراوي وأنباء الرسل

أما محمد الهراوي، الذي رحل عن الدنيا عام ١٩٣٩م، فقدم للأطفال شعرا إسلاميا، من السهل الممتنع، وخص قصص الأنبياء بديوان كامل عنوانه «أنباء الرسل»، وفي تقديمي لديوانه قلت إنه كان يستهل دواوينه بآيات من كتاب الله ...، وديوانه هذا على غلافه :﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾(هود)، .. والهراوي يكتب منظومة عن كل نبي، غير أنه يضع بين أثنائها بعض العناوين، مما يجعل الأبيات قليلة، قصيرة، يسيرة، يسهل على الطفل مطالعتها بل وحفظها، وهو يكتفي بالحدث أوالأحداث الرئيسية في حياة كل نبي، ولا يدخل في تفاصيل قد يتوه بينها الطفل الصغير، كما أنه ينطلق مباشرة إلى هدفه، متخذا أقصر الطرق، ولم يلجأ إلى شرح الكلمات إلاّ في قصيدة معرفة الله تعالى، وترك الديوان للأطفال يفهمون كلماته من السياق، أو ليشرحها لهم الآباء والمعلمون ...، فقد يكون هناك ما هو غامض عليهم، وإن كانوا أصلا يعرفون قصص الأنبياء وأنباء الرسل، والجديد هنا هو النظم والشعر وموسيقى الأبيات وقوافيها، وكلها تقرب المعاني للأطفال وتؤكدها وتكررها وتثبتها وتحببهم في هذا الذي يقرؤونه وربما استظهروه وحفظوه عن ظهر قلب.. وهذا نموج من شعره :

معرفة الله تعالى

الله، جل شأنهُ، له الصفات الباقيةْ
رب السماء والأرا ضي، والمياه الجاريةْ
وربك الذي حبا ك نعمة وعافيةْ
يسمع ما تقولهُ في السر والعلانيةْ
ويبصر النملة في جنح الليالي الداجيةْ
مقتدر، ذو رحمةٍ وآخذ بالناصيةْ
فخف من الله الذي يعلم كلّ خافيةْ

كامل كيلاني في شعره الإسلامي

كان كامل كيلاني شاعرا، يورد قصائد في نهاية قصصه، لكنه لم يصدر ديوانا للأطفال، وقمنا بجمعها ونشرها عام ١٩٨٨ م .. وضمنّاها مجموعة من قصائده بخط يده .. وكان الرائد الكبير أول من صاغ سيرة الرسول ﷺ للأطفال في حوار بين أصدقاء ثلاثة.. وقد نشر قصيدة عن الأمل : ذلك النور الإلهي الذي يغمر النفس فنرى فيه عزاء المنكوبين، ورجاء المغلوبين، وسلوة البائسين، وبلسم المجروحين، إن الطائر الخائف يرى الأمن والأمان عند الله سبحانه وتعالى لذلك يحمده ويشكر فضله:

نلك الطائر المفزع، يلقى
أمنه- كلما تفزع - عندكْ
أنت قويت بالجناحين منه
ضعفه، فانبرى يردد حمدكْ
ولساني بالقول يعلن شكركْ
وفؤادي بالصمت يحفظ عهدكْ
فيك آمالنا، ومنك هدانا
وعليك اعتمادنا : أنت وحدكْ
فاحْبُ، يا خالق البرية، رفدكْ
واهد - يا ربنا- إلى الخير عبدكْ!

إبراهيم العرب وقصائده الإسلامية

وأصدر الشاعر إبراهيم العرب -هكذا اسمه- ديوانا سماه «آداب العرب» عام ١٩١١م، وهو شاعر مصري من الاسكندرية، ضمن كتابه هذا مائة قصيدة، تروي كل منها قصة، وقد أعدنا نشره للدارسين وللأطفال عام ١٩٨٩م، بعد أن قدمنا لكل قصيدة بموجز للقصة، وأحدث نشره اهتماما كبيرا بين المهتمين بثقافة الأطفال وأدبهم، ذلك أنه كان ديوانا مجهولا، لم يسمعوا به من

قبل، ويقول في مقدمته بعد حمد الله والصلاة على نبيه : « أما بعد، فهذا كتاب خدمت به نابتة الوطن المحبوب وأجريت فيه الأمثال والحكم المأثورة ليأخذوا منها ما يربي نفوسهم ويقوم أخلاقهم ويطبعها على أصوب آراء المتقدمين، وقد التزمت أن أجعل مواعظ كتابي أقاصيص قريبة التناول واضحة المعنى سهلة النظم يقرؤونها بلا ملل وينتهون منها إلى تلك الكلم الجوامع كأنها نهايات طبيعية لتلك المواضع العذبة المشرب، على أنني جاريت السابقين من كتاب العرب وأدباء الغرب فجعلت حكم تلك العظات دائرة على ألسنة بعض الحيوانات المعروفة، ليكون الإخبار بذلك أفكه، والمواعظ أبلغ في ضرب الأمثال وسرد الحكم» .

ويمكننا من خلال مقدمة أو فاتحة الكتاب أن ندرك أننا أمام شاعر إسلامي، بل ربما كان رائد الشعر الإسلامي للأطفال.

اهتمامات ودراسات حول شعر الطفل

ولقد بذلت بعض الهيئات والمؤسسات جهدا في مجال شعر الطفل، وكانت رابطة الأدب الإسلامي العالمية سباقة في هذا المجال. فأصدرت دواوين عدة، عذبة، وجميلة، وتستحق الإشادة بها وتقديم نماذج منها، إذ إن من واجب الآباء أن يقتنوها لأطفالهم ..

وقد عقد د. سعد أبو الرضا في كتابه « النص الأدبي للأطفال » فصلا عن المنظومة الشعرية للأطفال تحدث فيه عن بعض معاييرها الفنية، لتلائم الطفل عقليا ونفسيا وفكريا وجماليا، كما قدم في هذا المجال تحليلا لديوان شوقي للأطفال بعد أن قسمه وفاقا للمراحل السنية للأطفال وبناء على الخصائص النفسية لكل مرحلة سنية على حدة.

كما قدم أ. أحمد فضل شبلول دراسة رائعة حول (جماليات النص الشعري للأطفال) ، وقد لاحظ غياب المتابعات النقدية لما يكتبه شعراؤنا المعاصرون للأطفال، وفي كتابه هذا يتابع جهود اثنين وعشرين شاعرا عربيا قدموا أكثر من (٥٢٥) نصا عبر دواوينهم المختلفة، وخلص المؤلف إلى نتائج غاية في الأهمية، لو أننا نظرنا إليها بعيون فاحصة لاستطعنا أن نرقى بشعر أطفالنا إلى ذرى عالية..

وقد ضم كتابنا «من شعر الأطفال» دراسات من شتى أرجاء الوطن العربي : د. علي الحديدي- رائد الكتابة عن أدب الطفل من مصر، د. هادي نعمان الهيتي من العراق، د. عبدالعزيز المقالح من اليمن، أ. فاروق يوسف من العراق، أ . نادر أبو ذكري من سوريا، أ . العربي بن جلون من المغرب، أ.عبدالفتاح أبو معالي من الأردن، مع دراسة لي عن شعر الأطفال عالميا، من أجل أن يطلع شعراؤنا على أحدث ما يكتبه الشعراء العالميون للأطفال من أمثال تيد هيوز شاعر الإمبرطورية البريطانية، وهو لقب رسمي يحصل عليه شخص واحد، وقد توفي هيوز منذ عامين، بجانب شعراء عالميين، مثل الشاعر الياباني الذي له قصيدة من بيت واحد يقول فيها: «**الحمار الوحشي في سجن صنع قضبانه بنفسه لنفسه**». وهو يقصد بالطبع تلك الخطوط التي على جسمه. ولسنا نريد أن نستطرد في الحديث عن شعر الأطفال لكن الكبار جدير بهم أن يقرؤوه، لأنفسهم ولأطفالهم .. ليمتعوهم به، خاصة وأن لدى بعض أطفالنا مواهب يمكن اكتشافها في الطفولة، ولا بد من تشجيعها، فقد يصبحون ذات يوم شعراء كباراً، مثل أجدادهم الذين كانت تفرح بهم قبيلتهم، فتدق الطبول والدفوف إعلانا عنهم واعتزازا وفخرا بظهورهم..

وأطفالنا جديرون بأن يسمعوا أسماء حسان بن ثابت والمعري والمتنبي وشوقي، وغيرهم من عمالقة الشعر، وهذا هو الذي دفعنا إلى إقامة مسابقة تحمل عنوان: لمن هذه القصيدة؟ نقرأ أبياتا لشاعر كبير خلال الإذاعة ونحدث الأطفال عنه، ونشرح القصيدة، ونريد للطفل أن يعرف قائلها.

إن شعر الأطفال الديني يحتاج منا للمزيد من الإبداع والمبدعين، وأيضا هو يحتاج إلى النقد والناقدين. ■